هل يموت المتوسط ؟!

أرسل رجل يدعى (تيم ريس) خطابا إلى محرر نشرة (عروس البحر) التى يصدرها برنامج البحار الإقليمية التابع لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة يقول فيه :

«. . . فى أغسطس الماضى ركبت البحر المتوسط فى رحلة لمدة سبعة أيام على ظهر سفينة يونانية، وقد تأثرت كثيرا بالجمال الفائق فى جزر هذا البحر غير أن ثمة ما هالنى وانتقص من متعتى ذلك أننى لاحظت أن السفينة التى كنت اركبها كانت تلقى بكميات ضخمة من النفايات وسقط المتاع فى مياه البحر مرتين أو ثلاث مرات يوميا. وخلال أيام الرحلة كنا نقابل سفنا أخرى، وكانت تقترف نفس الأفعال، وقد أحصيت من هذه السفن حوالى العشرين فإذا كان الأمر يسير بهذه الصورة فإن مياه البحر تستقبل عدة أطنان من نفايات السفن كل عام. وقد أحسست بالتزامى نحو أن أنقل إليكم مثل هذه التصرفات والسلوكيات غير المسئولة آملا أن تتمكنوا من العمل على تقويمها أو بترها. . .».

هذا شاهد عيان يؤكد سوء أحوال البحر الذى كانت مياهه رمزا للجمال والصفاء عند الشعراء الرومانطيقيين، وأصبح يعانى

إهمال خطط التنمية فى الدول المطلة عليه. كانت شواطئ البحر المتوسط تجتذب إليها حوالى مائة مليون من السائحين والمصطافين من كل أنحاء العالم ففقد شهرته، وهجره السائحون لتلوث مياهه ورماله ببقع الزيت الخام وكرات القطران بالإضافة إلى الفزع من قناديل البحر. لقد كان على البحر المتوسط أن يتحمل حركة نقل النفط والغاز من الشرق الأوسط وشمال إفريقيا إلى أوربا وأمريكا الشمالية. ولعل الخريطة (رقم ١) توضح مدى كثافة شبكة المسارات لناقلات البترول حيث تغطى كل مساحة البحر تقريبًا.

وثمة إحصائية تشير إلى أن متوسط حمولة هذه الناقلات ٦٠٠ مليون طن سنويا من النفط ومنتجاته أما المخلفات الزيتية للسفن وناقلات البترول بالإضافة إلى حوادث التسرب النفطى المحدودة فإنها تلوث مياه المتوسط بحوالى ٦٥٠ ألف طن من الزيت سنويًا.

والحقيقة فإن التلوث ليس جديدًا على البحر المتوسط فقد تعرض له على مدى أربعة الاف سنة من التاريخ المسجل إذ اعتمدت مختلف الحضارات التى ازدهرت على شطآنه على البحر فى كل مظاهر وأنشطة الحياة، ومن بينها التخلص من فضلات المدن. ولكن البحر قديما كان (فتيا)، وقادرًا على (هضم) تلك الملوثات المحدودة أما الآن فإنه أصبح أقل قدرة على تحمل التلوث لعدة أسباب :

الأولى: تزايد عدد السكان المتوسطيين (العدد المتوقع فى عام ٢٠٢٥ هو ٦٠٠ مليون نسمة) .

الثانى: أن مخلفات سكان سواحل المتوسط أصبحت تحتوى على مواد (جديدة) مثل البلاستيك، ونفايات سامة (المبيدات) بالإضافة إلى النفط .

الثالث: التصاعد المستمر فى استغلال واستنزاف الموارد الطبيعية ومصادر الطاقة، وذلك يؤثر فى اتجاهين: إجهاد الموارد الطبيعية حتى إن بعضها قارب النفاد بالإضافة إلى إنتاج كميات إضافية من الملوثات الصلبة والسائلة والغازية تزيد من أعباء جهود صون البيئة.

الرابع: أن مساحة البحر المتوسط ثابتة منذ وجد، ولا تزيد على مليونين و ٩٦٥ ألف كيلومتر مربع بمتوسط عمق ١٥٠٠ متر .

ولا يتصل المتوسط بغيره من البحار والمحيطات إلا بفتحات صغيرة أو ممرات مثل مضيق جبل طارق إلى الأطلنطى، ومضيق الدردنيل إلى البحر الأسود أما صلته بالبحر الأحمر عن طريق قناة السويس فلا تكاد تذكر بالنسبة لتبادل كتل المياه .

وبالإضافة إلى ذلك فإن معدل البخر فوق مياه المتوسط يساوى ثلاثة أمثال كل ما يكسبه من مياه الأمطار ومصبات الأنهار ولولا صلته المحدودة بالمحيط الأطلنطى لصار بحيرة شبه مغلقة.

وعلى أية حال فان عملية تجديد مياهه عبر مضيق جبل طارق تستغرق ٨٠ عاما تقريبا فهى عملية لا قيمة لها - تقريبا - فى تجديد شباب البحر بالسرعة المطلوبة لإزالة أعراض المرض عنه .

ويصف بعض علماء البيئة الأنظمة البيئية المتوسطة بأنها ذات طبيعة هشة، فهى جافة معظم أيام السنة فإذا سقطت الأمطار شتاء عرّت تربتها المكونة فى معظمها من الصخور الجيرية. وليت الخطورة تقف عند حد تأثير النحت. . لقد تدخل الإنسان المتوسطى فى شئون البيئة، وأحدث بها العديد من التغيرات عبر آلاف السنين حتى إنه يمكن القول: إن ذلك الإنسان هو صانع بيئته بكل ما أوجده فيها من حضارات استقرت على حساب ملامح وموارد تلك البيئة .

وفى العصر الحديث شهدت سواحل البحر المتوسط خلال نصف قرن مضى تزايدًا فى عدد السكان، وفى التنمية. لقد اجتذبت السواحل المتوسطية الشمالية المشمسة سكان الشمال الأوربى فزحف إليها رجال الأعمال والصناعة جالبين معهم أنشطتهم المختلفة، وتكنولوجياتهم لتنامية ليكونوا أقرب إلى الأسواق وإلى الأيدى العاملة الرخيصة أما السواحل الجنوبية والشرقية فهى لدول نامية حصلت على استقلالها بعد الحرب العظمى الثانية، واندفعت فى تنفيذ برامج طموحة للتصنيع والتنمية، وهكذا تبدلت الملامح الحضارية لحوض البحر المتوسط، وأصبح أشبه ما يكون بمجمع صناعى ضخم، واحتدم التنافس بين الزراعة والصناعة والسياحة والنقل والتعمير من أجل الأرض الساحلية المحدودة، ومصادر المياه على ندرتها. وهكذا ابتلى البحر المتوسط بتدهور أحوال موارده الطبيعية، وبانتشار التلوث .

وقبل ثلاثة عقود من الزمن كان ثمة من يصفون البحر المتوسط بأنه بحر فقد - عمليًا - صفة الحياة. والحقيقة أنهم لم يكونوا يعنون ذلك بالضبط بل كانوا يبالغون فى وصف حالته المتدهورة حيث تضخمت حدة مشاكل تلوث مياهه .

وعلى أية حال فقد فعل أولئك المتشائمون خيرًا فقد حفزوا البلاد المشتركة فى الإطلال على البحر المتوسط إلى الانتباه للمشكلة، وإلى التعاون من أجل صحة البحر وتجلى ذلك فى عدة اتفاقيات وبرامج تشتمل على رؤية واسعة لمشاكل البيئة، ولا تقتصر فعالياتها على المياه والسواحل المتوسطية فقط بل تتعداها لتتناول كل ما يجرى من أنشطة بشرية على أراضى الدول المتشاطئة فقد أثبتت التجارب السابقة صعوبة الفصل بين صحة المياه والسواحل، وطبيعة ما يحدث على اليابسة.